المحاضرة الأولى: البراديغم الوظيفي

رغم حداثة تخصص الإعلام والاتصال، إلا أنهّ مجال حيوي تمكن فيه الباحثون من بلورة نظريات لتأطير الأبحاث والدراسات المتعلقة بالظاهرة الاتصالية والإعلامية، انطلاقا من براديغمات مستمدة أصلا من علم الاجتماع وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي، ومن بين البراديغمات المهيمنة في بحوث الإعلام والاتصال نذكر على سبيل المثال لا الحصر البراديغم الوظيفي.

يعد البراديغم الوظيفي خلفية لكثير من النظريات المتعلقة بالسير العام للمجتمع، ويعتمد على المسلمات الخاصة بنظرية البنائية الوظيفية، والتي ترى أن المجتمع يتكون من عناصر مترابطة ومتكاملة وظيفيا وبنائيا، وتتجه نحو التوازن من خلال توزيع الأنشطة بينهم والتي تقوم بدورها بالمحافظة على استقرار النظام، وتعتبر هذه الأنشطة ضرورية لاستقرار المجتمع وهذا الاستقرار مرهون بالوظائف التي يحددها المجتمع للأنشطة المتكررة تلبية لحاجاته. فالمقاربة الوظيفية تبنى على تشبيه المجتمع بالكائن الحي العضوي، إذ يتكون من مجموعة من العناصر الأجزاء، وكل عنصر يؤدي وظيفة ما في إطار الجهاز المجتمعي، وبهذا يترابط كل عنصر مع النسق بوظيفة ما، فالمجتمع نظام متكامل ومترابط ومتماسك، يهدف إلى تحقيق التوازن والحفاظ على المكتسبات المجتمعية، ويهتم هذا البراديغم بالطريقة التي تؤثر بها بعض الظواهر في سير النظام الاجتماعي . ويشكّل الاتصال الجماهيري إحدى الظواهر الملائمة للتحليل الوظيفي.

وتستمد هذه النظرية اصولها الفكرية العامة من أراء مجموعة كبيرة من علماء الاجتماع التقليديين والمعاصرين، الذين ظهروا على وجه الخصوص في المجتمعات الغربية الرأسمالية، أمثال :أوغست كونت، إميل دوركايم، هربرت سبنسر، والمعاصرين أمثال: تالكوت بارسونز، روبرت ميرتون..الخ.

تعتبر البنائية الوظيفية من النظريات السوسيولوجية التي شغلت حيزا كبيرا في أدبيات علماء الاجتماع، خاصة في بداية القرن العشرين، واحتلت مكانة مرموقة بين نظرياته، ولم تأت هذه النظرية نتيجة جهد عالم بعينه، بل تظافرت في تحديدها جهود العديد منهم من مجالي علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وينظر أصحاب هذا الاتجاه على رأسهم " تالكوت برسنز "إلى المجتمع باعتباره نسقا اجتماعيا مترابطا ترابطا داخليا، ينجز كل جزء من أجزائه أو مكون من مكوناته وظيفية محددة، بحيث أن كل خلل أو تغيير في وظيفة إحدى مكوناته ينجر عنه تغيير في باقي أجزاء النسق.

تقوم النظرية على أن تنظيم المجتمع وبنائه هما ضمان استقراره، وذلك نظرا لتوزيع الوظائف بين عناصر هذا التنظيم بشكل متوازن يحقق الاعتماد المتبادل بين هذه العناصر، فالبنائية نشير إلى تحديد عناصر التنظيم والعلاقة القائمة بين هذه العناصر والوظيفة تحدد الأدوار التي يقوم بها كل عنصر في علاقته بالكل، وفهم مساهمته في النشاط الاجتماعي الكلي، والذي يحقق الثبات والاتزان من خلال توزيع الأدوار على العناصر في شكل متكامل وثابت، وهنا نجد أن التنظيم غاية بناء كل مجتمع حتى يحافظ هذا البناء على استقراره وتوازنه،

ولا يسمح التنظيم بوجود أي خلل في هذا البناء سواء من حيث العلاقات أو الوظائف إذ يؤثر هذا الأخير على التوازن والاستقرار.

يتفق الباحثون في هذه النظرية على المسلمات التالية:

-النظر إلى المجتمع على أنه نظام يتكون من عناصر مترابطة وتنظيم نشاط هذه العناصر بشكل متكامل

- يتجه المجتمع في حركته إلى التوازن ومجموع عناصره تضمن استمرار ذلك بحيث لو حدث أي خلل في هذا التوازن فإن القوى الاجتماعية سوف تنشط لاستعادته.

- كل عناصر النظام والأنشطة المتكررة في المجتمع تقوم بدورها في المحافظة على استقرار النظام.

- الأنشطة المتكررة في المجتمع ضرورية لاستمرار وجوده وهذا الاستمرار مرهون بالوظائف التي يحددها المجتمع للأنشطة المتكررة تلبية لحاجاته.

و اذا طبقنا الافتراضات السابقة على الاتصال الجماهيري ان وسائل الاعلام تقوم بأنشطة متكررة ومتماثله في النظام الاجتماعي تساهم في تحقيق التوازن الاجتماعي لهذا المجتمع وبمعنى اخر تترتب عليها نتائج بالنسبة للمجتمع ككل، كما تؤكد هذه النظرية على اهمية تحديد العلاقة المتبادلة بين وسائل ونظم الاتصال الجماهيري، وبين بقية النظم و الأنساق الاجتماعية الاخرى، وتقوم العلاقة بين هذه العناصر وباقي عناصر النظم الاخرى في المجتمع، على أساس من الاعتماد المتبادل بين هذه العناصر والأنشطة، لضمان استقرار المجتمع وتوازنه.

يعرف النموذج الإرشادي للبنائية الوظيفية بالنموذج المحافظ، لحرصه على مراعاة التوازن بين مكونات النظام الاجتماعي ومعارضته للتغيير .ويركز التحليل الوظيفي على توضيح المهام التي يسعى القائم بالاتصال إلى تحقيقها، والنتائج التي تحدث دون أن يهدف إليها .ويسعى في المستوى الأول إلى قياس تأثيرات عملية الاتصال بشكل عام كعملية اجتماعية، وعلى مستوى ثان يدرس وسيلة إعلامية أو أكثر، وفي المستوى الثالث يقوم بتحليل وسيلة الاتصال كمؤسسة، أما المستوى الرابع فيدرس أوجه النشاط الإعلامية الأساسية التي تتم بواسطة الإعلام.

وفقا لمبادئ " النظرية البنائية الوظيفية التي تعتبر المجتمع منظومة كلية مكونة من عدة أجزاء فاعلة ومترابطة، فإن وسائل الإعلام تُمثل إحدى المنظومات الجزئية التي تتطلب الحياة الاجتماعية مشاركتها المستمرة وعلية فإن وسائل الإعلام والاتصال، باعتبارها نظاما فرعيا في المجتمع، تقوم بعدد من الوظائف التي تساهم من خلالها في الحفاظ على وجود المجتمع استقرار.

ويمكن القول بأن وسائل الاعلام تعد من المكونات الأساسية التي لا غنى عنها في البناء الاجتماعي ولا يستطيع المجتمع المعاصر بالشكل الذي نعرفه أن يستمر بدون هذه الوسائل ومن ناحية أخرى فإن وسائل الإعلام يمكن أن تكون أحد عوامل الخلل الوظيفي وذلك حين تساهم في التنافر وعدم الانسجام بدلا من الاستقرار إذا كان تأثيرها على الناس هو الإثارة والتحريض على ممارسة أشكال السلوك المنحرف.

ومن الواضح تماما أن وسائل الإعلام غدت في الوقت الحالي جزء مركزيا من هياكل مؤسساتنا هذا يعني أنها في الوقت الذي تمثل فيه صناعات قائمة بذاتها تغلغلت بعمق داخل كل مؤسسات المجتمع الأخرى وعلى سبيل المثال فإن وسائل الاعلام من خلال تركيزها على الخدمات والمنتجات الصناعية تعتبر جزءا أساسيا من المؤسسات الاقتصادية ومن خلال قيامها بدور متزايد في عمليه الانتخابات أصبحت جزءا أساسيا من مؤسسه السياسية وقد ادى تركيزها الشديد على المواد الترفيهية والثقافة الشعبية إلى اعتبارها عاملا مهما في بناء الأسرة ويرى الكثيرون أنها اصبحت جزءا مهما من المؤسسات الدينية والتعليمية وتهتم هذه المؤسسات الإعلامية بالتوازن والاستقرار أكثر من اهتمامها بالتحول والتغيير.

وفي هذا الشأن يستند الكثير من الباحثين إلى الإطار النظري الوظيفي الذي يقترحه هارولد لاسوال والذي يحمل الوظائف التقليدية ممثلة في وظيفة الإخبار والربط بالبيئة، الوظيفة التجارية، وظيفة الترفيه، وظيفة مواكبة التحولات المجتمعة ووظيفة الضبط والرقابة التي يرى فيها أغلب الباحثين إنجازا نظريا يشترك فيه كل من جيريمي بنتام وميشال فوكو، ولا يزال الإطار النظري صالحا جدا لتفسير ظاهرة الميديا الجديدة لا تختلف كثيرا في نظرهم عن الإعلام التقليدي من حيث الغايات والمنتهيات داخل الحياة الاجتماعية على الرغم من الاختلاف في الممارسات.

.